من كتب الشرق والغرب

كتاب « مؤسس الإسماعيلية فيما يقولون » (١)

منذ ظهر عبيد الله المهدى على مسرح السياسة ببلاد المغرب سنة ٢٩٦ هـ . وأسس الدولة التى عرفت فى التاريخ باسم الدولة الفاطمية ، والناس مختلفون فى نسبه ، وأكثروا من الحديث عن ذلك ، ووضعوا الكتب حول نسبه ، بل صدرت نشرات رسمية من قبل العباسيين وعليها خطوط العلماء والفقهاء والنقباء فى معنى أن هؤلاء الذين يحكمون باسم الفاطميين لا يمتون إلى فاطمة الزهراء بصلة ، وأنهم أدعياء وأن نسبهم إلى عبد الله بن ميمون القداح الديصانى الملحد ؛ وبجانب هؤلاء الذين طعنوا فى نسب الفاطميين نجد الدعوة الفاطمية الاسماعيلية تنتشر فى جميع أنحاء البلاد الاسلامية ويعتنقها عدد كبير من العلماء ، بل اتخذها بعض ملوك البويهيين وأمراء اليمن والعرب دينا لهم واعتقدوا اعتقاداً راسخ فى أذهانهم أن الفاطميين من نسل فاطمة البتول

ورث المحدثون هذا الخلاف بين المنكرين والمؤيدين للنسب الفاطميين ، فنرى كتباً لاتزال تصدر فى نسب الفاطميين ، واهتم به المستشرقون خاصة بسبب ما أذيع ونشر أخيراً عن عقائد الاسماعيلية التى كانت سراً لا يقربه إلا خاصة من اعتنق دعوتهم . فأصبحت الآن هذه العقائد فى كتب متداولة يطلع عليها من يشاء متى شاء .

ولعل أكثر العلماء المحدثين اهتماما بدراسة الاسماعيلية هو الأستاذ المستشرق الروسى و . ايفانوف ؛ فقد نشر أكثر من سبعة وعشرين بحثا عن طائفة الاسماعيلية تناول فيها تاريخها وعقائدها . وهذا الكتاب الذى نحن بصدده هو آخر ما أنتجه ، حاول فيه أن يكشف القناع عن سر ميمون القداح وابنه عبد الله بن ميمون الذى ينسب إليه بعض العلماء تأسيس الدعوة الاسماعيلية ، وأنه جد الخلفاء الفاطميين .

تتبع المؤلف تاريخ الرواية القائلة بأن القداح هو رأس أسرة خلفاء الفاطميين ، فوجد أن أول القائلين بها هو أبو عبد الله محمد بن رزام الطائى فى كتاب له ألفه فى القرن الرابع للهجرة . وقد فقد هذا الكتاب ، ولكن ابن النديم صاحب الفهرست نقل عنه . ويظهر أن ابن النديم لم يكن واثقاً تمام الثقة بما حكاه صاحبه ؛ ولذلك قال : « وأنا أبرأ من العهدة فى الصدق عنه والكذب فيه » . ثم جاء أخو محسن أبو الحسين محمد بن الشريف الدمشقى المتوفى سنة ٣٧٥ هـ فوضع كتابا فى الرد على الاسماعيلية ذهب فيه إلى أن الفاطميين أدعياء ، وتوالت بعد ذلك كتب المؤرخين وأصحاب الفرق ، ونحا أكثرهم إلى أن الفاطميين ليسوا من نسل النبى صلى الله عليه وسلم . وقد لاحظ ايفانوف أن هؤلاء

(١) *The Alleged Founder of Islamism* للأستاذ و . ايفانوف . نشرته الجمعية الاسلامية ببمباى سنة ١٩٤٦ وطبعه Thacker & Co. .

المؤرخين اختلفوا فى حديثهم عن نسب الفاطميين وعن مؤسس دعوتهم، فكان المتأخر منهم يضيف شيئاً جديداً من عنده لم يذكره المتقدمون، حتى كملت قصة القداح واتخذت هذا المظهر الذى نراه عند المتأخرين . ولعل التعصب المذهبى كان من أهم أسباب اختلاق هذه الروايات المختلفة عن نسب الفاطميين وعقائدهم؛ حتى إن رجال الشيعة الاثنى عشرية قاوموا الدعوة الاسماعيلية قبل ظهور عبيد الله المهدى ؛ فقد ألف فارس بن حاتم بن ماهويه القزوينى المتوفى سنة ٢١٩ هـ كتاباً فى الرد على الاسماعيلية ، ووضع محمد بن ابراهيم بن جعفر الكاتب النعمانى المتوفى سنة ٢٧١ هـ رداً آخر ، وكتب محمد بن موسى الكاتب المتوفى سنة ٢٨٣هـ رداً ثالثا ، وهكذا قاوم الاثنى عشرية الدعوة الاسماعيلية وهى لاتزال فى مهدها . ولكن من الحق علينا أن نقول إن الاثنى عشرية لم يعرضوا لمؤسس الدعوة أو لنسبه ، إنما كانوا يعملون لاثبات الامامة لموسى الكاظم بعد أبيه جعفر الصادق ونفيها عن اسماعيل بن جعفر، فكأنهم كانوا يعترفون أن مؤسس الدعوة الاسماعيلية وإمامها هو إسماعيل وأبناؤه من بعده .

وبالرغم من أن الفاطميين انتصروا سياسياً واسسوا لهم ملكا واسع الارجاء ونافسوا العباسيين منافسة كان لها خطرها ، بل استطاع الفاطميون أن يمتلكوا بغداد نفسها سنة ٤٥٠ هـ ، بالرغم من ذلك كله فان لفاطميين لم يصدروا وثيقة واحدة تدحض نشرات العباسيين فى مسألة نسبهم . وقد علل ايفانوف ذلك بأن الفاطميين كانوا يعتقدون بالستر على الأئمة المستورين، ومن المحرم عندهم أن يذكروا أسماء هؤلاء المستورين . قد يكون هذا الرأى مقبولا ، وعقيدة الستر على الأئمة المستورين ليست من عقائد الفاطميين فحسب ، بل قال بها الاثنى عشرية أيضاً حتى إنهم لا ينطقون باسم الامام الثانى عشر الذى اختبأ فى السرداب بسامرا وقالوا « لا يسمى باسمه إلا كافر » . ومع ذلك فانى أرى دعاة المذهب الفاطمى وحججه لم يخشوا بأساً من ذكر أسماء هؤلاء المستورين ؛ فأحمد حميد الدين بن عبد الله الكرمانى حجة العراقيين المتوفى سنة ٤١٢ هـ ذكر فى الباب السادس والعشرين من كتابه « تنبيه الهدى والمستهدى » أسماء الأئمة المستورين وسلسل الأئمة حتى إمام زمانه الحاكم بأمر الله . ويحدثنا المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى حجة المستنصر فى سيرته أنه بنى مشهداً فى الأهواز ونقش على محرابه أسماء الأئمة من اسماعيل بن جعفر حتى المستنصر بالله الفاطمى . وكذلك أجد فى كتب دعاة اليمن حديثاً عن هؤلاء الأئمة ؛ فالراعى ابراهيم الحامدى ذكرهم فى كتابه « كنز الولد » وهكذا ، ويعلل أستاذنا الدكتور طه حسين بك صمت الفاطميين عن نشرات العباسيين بأن الفاطميين أجادوا فن السياسة وسياسة الجدل على وجه الخصوص ، فلم يمكنوا أعداءهم العباسيين من الحصول على وثائق رسمية منهم بها ذكر نسبهم أيا كان هذا النسب ؛ حتى إن العباسيين كرروا إصدار نشراتهم فلم يقابلها الفاطميون إلا بالصمت .

عرض الأستاذ ايفانوف لتاريخ عبد الله ابن ميمون القداح وأبيه . واتجه إلى كتب الحديث وطبقات المحدثين يستعين بها ، فبحث فى كتب الشيعة الاثنى عشرية وكتب أهل السنة ، فوجد فى هذه الكتب كلها ذكرا لميمون القداح الكوفى المخزومى . وتجمع هذه الكتب على انه كان تقيا ورعا متقشفا ، وكذلك قالت عن ابنه عبد الله بن ميمون ، وأن كل الأحاديث التى تروى عن طريقهما إما عن الصلاة او عن المأكل والمشرب والملبس ، وأنهما كانا على صلة وثيقة بالامامين

الباقر والصادق ، حتى لقب كل منهما بمولى الامام . على أن كتب أهل السنة ترفض الأحاديث التى تروى عن طريق ميمون القداح لأنه ضعيف الحديث ، ولكن لم يذكر مصدر واحد من هذه المصادر أن ميمونا أو ولده كان ملحداً منكراً للأديان .

وناقش ايڤانوف معنى القداح ؛ فالقدماء يذهبون إلى أنه قادح العيون ، مخالفهم وذهب إلى أنه لقب بهذا اللقب لأنه كان موكلا بالأوانى الحجرية الكبيرة التى كانت لمواليه الباقر والصادق . وليس عندنا من النصوص التاريخية ما يثبت هذا الرأى أو ينفيه ، وسيظل فرض ايڤانوف قائماً إلى أن تظهر حقيقته . وكذلك بحث المؤلف قصة كنية القداح ، فقد كناه القدماء بأبى شاكر ، فذهب إلى أن هذه الكنية لم تذكر فى كتب المحدثين ولم يذكرها ابن رزام أول من قال إن عبد الله ابن ميمون هو مؤسس الاسماعيلية ، ورجح أن أول من أسند هذه الكنية للقداح هو ابن شداد الحميرى المتوفى سنة ٥٠٩ هـ على ماروواه ابن الأثير فى حوادث سنة ٢٩٦ هـ ورد إيڤانوف على ابن شداد بأن الموالى لم يكن لهم أن يتكنوا فى القرنين الأول والثانى من الهجرة . ولكن كتب الطبقات على اختلافها وكتب التراجم لاتؤيد رأى إيڤانوف ؛ فقد حفظت لنا هذه الكتب كنى عدد كبير من الموالى ؛ فالشاعر بشار بن برد وكان معاصراً للقداح كان يكنى بأبى معاذ ، والشاعر الحسن بن هانئ كنى بأبى نواس ، وصاحب دعوة العباسيين كنى بأبى مسلم واسمه عبد الرحمن بن مسلم ، والدراوردى المحدث كان يكنى بأبى محمد . وقد يطول بى الأمر لو أتيت على كنى جميع الموالى الذين كانوا فى القرنين الأول والثانى من الهجرة .

وناقش إيڤانوف قول أعداء الفاطميين بأن عبد الله بن ميمون القداح كان ديصانيا وثنيا ، وبين الخلط الذى وقع فيه القدماء بأن توهموا أن الديصانية وثنية أو مجوسية ؛ إذ أن الديصانية هى إحدى فرق الفنوسطية المسيحية ، نشأت فى الرها على يد ابن ديصان المتوفى سنة ٢٢٢ م . وانتشرت فى الجزيرة وفارس وتركستان وخراسان واستمرت مدة طويلة حتى عصر ابن النديم ؛ فهى فرقة من الفرق المسيحية وليست كمجوسية مزدك أو وثنية العرب . وقد كان لهذه الفرقة أثرها فى الفرق الاسلامية التى ظهرت فى القرنين الثانى والثالث للهجرة . ولكن ليس هناك مايثبت صلة ميمون القداح أو ابنه عبد الله بن ميمون بالديصانية ، وإذا فرض أنهما كانا ديصانيين أى مسيحيين قبل إسلامهما فلم يذكر رجال المحدثين شيئاً عن انحرافهما عن الاسلام أو عدم إخلاصهما للامامين الباقر والصادق . أضف إلى ذلك أننا نجد فى كتب الاسماعيلية الأولى ردا على بعض عقائد الديصانية ، وأن باردیصان قد زج به مع زعماء الزنادقة .

وفى فصل ممتع من فصول هذا الكتاب عرض الأستاذ ايڤانوف للفرق الشيعية التى ظهرت بعد وفاة جعفر الصادق سنة ١٤٨ هـ ، وهى الفرق التى ذهب القدماء إلى أن للقداح صلة بها . وقد يكون هذا اللون من البحث من أشق البحوث العلمية وأدقها ؛ فكتب الفرق الاسلامية قد خلطت بين الفرق ولم تستطع تمييز كل فرقة تمييزا دقيقاً من ناحية التاريخ والعقائد ؛ فهناك بعض فرق تتشابه فى العقائد وتختلف فى الأسماء ، وهناك فرق أخرى ذكرت أسماؤها دون عقائدها ، وبعض مؤرخى الفرق نسبوا إلى فرق ماهى بريئة منه . ويخيل إلى أن مؤرخى الفرق لعبوا دورا كبيراً فى وضع عقائد بعض الفرق وتاريخها دون الرجوع إلى أسانيد تاريخية . ثم إن التشيع فى القرن الثالث

للهجرة كان فى محنة شديدة لم يعرف الشيعة لها مثيلا فى تاريخهم ؛ فأبناء الصادق كانوا بين مشرد ومسجون ، وكل من اتهم بالتشيع كان يحمل إلى بغداد أو سر من رأى ، ولم يبق للشيعة مركز يجتمعون فيه ويتبادلون الدرس والرأى فتفرقوا ، واتخذوا التقية على أنفسهم ، واتصلوا بأهل السنة ودرسوا مذاهبهم ، بحيث أصبح من الصعب أن نفرق بين الشيعى والسنى ولاسيما فى رواية الحديث ، بل لم يستطع الشيعة أن يضعوا كتباً خاصة بهم تعرف بها خصائص مذهبهم . ثم جاءت القرون المتعاقبة ، فكتب المتعصبون ضد الشيعة حسب أهوائهم ، ومن هنا كان البحث عن الفرق الاسلامية التى ظهرت فى القرنين الثانى والثالث من الهجرة من أشق البحوث وأدقها . ومع ذلك فقد أدلى الأستاذ ايڤانوف دلوه فى هذا البحث ، فناقش ماقيل عن فرقة الميمونية ولا سيما قول ابن رزام « إن ميمونا تنسب إليه الفرقة المعروفة بالميمونية التى أظهرت اتباع أبى الخطاب محمد ابن أبى زينب الذى دعا إلى ألوهية على بن أبى طالب » إلى أن قال : « وكان ميمون وابنه ديصانيين ، وادعى عبد الله أنه نبى مدة طويلة » . ناقش ايڤانوف هذا النص وانتهى إلى أن هذه القصة موضوعة ، وناقش كل ما ذكره أصحاب كتب الفرق عن الميمونية وسخر بقول ابن رزام فقال : « من الجائز أن مؤرخا كان قد سمع بوجود فرقة إلحادية عرفت بالميمونية وعرفت أخيراً بالخطابية فبحث عن شخص اسمه ميمون ممن كانوا يتصلون بالامام الصادق ليسند إليه رياسة هذه الفرقة فلم يجد سوى ميمون القداح التقى الورع ، وأن هذا الشخص الذى اخترع قصة نسب الفاطميين إلى عبد الله بن ميمون القداح لابد أن يجعله زنديقاً ملحدا فقال إنه من نسل ديصان وأنه ادعى النبوة » . ومن الطريف أن الأستاذ المستشرق دى جويه ناقش نص ابن رزام أيضاً وانتهى إلى رفضه .

وقد وقف الأستاذ ايڤانوف عند فرقة المباركية والميمونية وقفة طويلة ، ورجح أن ميمونا الذى تنسب إليه الميمونية هو نفسه عبدالله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ، مستنداً على نص عثر عليه فى كتاب عيون الأخبار للداعى ادريس عماد الدين بن الحسن المتوفى سنة ٨٧٢ هـ وهى رسالة أرسلها المعز لدين الله الفاطمى إلى داعى دعاته باقليم السند ، ينكر فيها المعز أنه من نسل ميمون القداح ، ويثبت أنه من نسل عبد الله بن محمد ابن اسماعيل الذى كان يسمى نفسه أحيانا على سبيل التقية « ميمون النقيبة » . أما المباركية فقد رجح أنها نسبة إلى اسماعيل بن جعفر الصادق الذى كان يلقب بالمبارك ، مستدلا على نص فى كتاب « سلم النجاة » الذى ينسب لأبى يعقوب السجزى (وكان فى النصف الثانى من القرن الثالث) : « إن المبارك عليه السلام سادس أئمة دور محمد ، والامام السادس هو اسماعيل بن جعفر » . هذا ما رجحه الأستاذ ايڤانوف عن الميمونية والمباركية . ولكنى أقف بدورى أسائل الأستاذ إيڤانوف كيف وثق برواية الداعى إدريس وهو متأخر (فى القرن التاسع للهجرة) على حين لم تذكر هذه الرواية فى أى كتاب من كتب الدعوة ، وكيف لم تذكر فى كتب القاضى النعمان وكان جليس المعز وصفيه وقاضيه ، مع أن القاضى النعمان روى فى كتابه « المجالس والمسايرات » فى الجزء الخامس ما نصه : « وقد وصل المعز خطاب من أحد الدعاة ، وكان فيما رأيت فى هذا الكتاب أن زعم له فيه أن الامامة انتقلت عن بعض الأئمة إلى ميمون القداح وإلى فلان وإلى فلان لقوم ذكرهم ، ثم جعل (المعز) يتعجب من هذا القول » إلى أن قال : « فكيف ينبغى أن

ينقطع القول فيه بأن قد صار إلى بعيدين كالذين ذكرهم هذا من ميمون القداح وغيره» . وقد ذكرت أن بعض علماء الدعوة قد عرضوا لذكر الأئمة المستورين ، ولكني لم أجد فى كتبهم أن عبد الله بن محمد بن اسماعيل قد لقب بميمون النقيبة بل لقبه جميعهم بعبد الله الرضى ، وأذهب إلى أبعد من ذلك فأقول إن خصوم الفاطميين قالوا إن عبد الله ابن ميمون القداح ادعى أنه عبد الله بن محمد ابن اسماعيل بن جعفر . فكأن الأستاذ ايڤانوف يوافق خصوم الفاطميين فى هذه الدعوى دون أن يشعر . هذه كلها مسائل تحتاج إلى جهود أخرى نرجو أن يبذلها الأستاذ إيڤانوف للكشف عنها وتحقيقها وهو قدير على ذلك .

وقارن الأستاذ إيڤانوف بين عقائد الخطابية وعقائد الفاطميين بعد أن بحث عن الخطابية بحثاً تاريخياً ، فكان موفقاً كل التوفيق فى آرائه وبحثه .

أما الفصل الذى كتبه عن « البنوة الروحية » والذى رد فيه على ما ذكره الأستاذ العلامة لويس ماسينيون فى مقاله عن سلمان الفارسى ، فقد حاول الأستاذ إيڤانوف أن يجعل من قول النبي عن سلمان « سلمان من أهل البيت » تكريماً لسلمان ، وأن كل ما جاء على هذا النحو فهو من قبيل التكريم فحسب ، بخلاف ماذهب إليه ماسينيون بان الفاطميين كانوا يقولون بالبنوة الروحية والدينية . فلعل الاستاذ إيڤانوف يعود إلى قراءة ما جاء فى المجلس السابع عشر من المائة الأولى من المجالس المؤيدية وفيه حديث طويل عن « الولادة النفسانية » و « الأبوة الدينية » وتأويل قول الله تعالى « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم » فقد ذهب المؤيد فى الدين إلى أن النبي (ص) أبو المؤمنين نفسانياً ودينياً . كما نجد فى رسائل إخوان الصفا عدة نصوص فى مواضع متفرقة عن الأبوة الروحية ، وأن المعلم أبو التلميذ نفسانيا إلى غير ذلك من الآراء والبراهين التى تؤيد رأى الأستاذ لويس ماسينيون . ولعل الأستاذ إيڤانوف يغير هذا الرأى بعد أن يعيد قراءة النصوص التى أشرت إليها .

وليس لى بعد أن قرأت هذا الكتاب القيم إلا أن أشكر الأستاذ إيڤانوف وأهنئه تهنئة صادقة على هذا المجهود الذى بذله للكشف عن سر ميمون القداح وابنه عبد الله بن ميمون ، وأشكره خاصة لهديته القيمة التى كانت متعة لى عدة أيام .

محمد كامل حسين
مدرس بكلية الآداب